الرمز الأخلاقي في تأويلات فيلون السكندري

أ. محمد محمود إبراهيم(*)

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على بعض الرموز الأخلاقية في تأويلات فيلون السكندري، أحد أهم فلاسفة اليهود في مرحلة ما بعد أرسطو المتأخرة من تاريخ الفلسفة اليونانية، وطرحت الدراسة تساؤلًا محوريًا هو: ما الرموز الأخلاقية التي تمثلت في تأويلات فيلون السكندري للنص التوراتي؟ ومن ثم تطرقت الدراسة إلى أهم مبادئ وآليات التأويل الرمزي عند فيلون، والتركيز على بعض التأويلات ذات العلاقة بموضوع الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الرمز - الأخلاق - التأويل - فيلون السكندري.

Summary

This study aims to identify some moral symbols in the interpretations of Philo of Alexandria, one of the most important Jewish philosophers in the late post-Aristotle stage of the history of Greek philosophy. The study raised a central question: What are the moral symbols represented in Philo of Alexandria's interpretations of the biblical text? In addition to clarifying the most important principles and mechanisms of symbolic interpretation in Philon and focusing on some interpretations related to the subject of the study.

مقدمة

يعتبر الفيلسوف الهلنستي فيلون السكندري (٢٠ ق.م-٥٠ م) من أبرز الفلاسفة اليهود الذين اهتموا بدراسة النص التوراتي، وفق مبادئ وآليات معينة لتأويلة، ولكن ما يميزه

(*) باحث ماجستير بمعهد البحوث والدراسات العربية.

أفلاطونيته، وتأثره الشديد بالاتجاه الرواقي والأرسطي ولفيثاغورث في الفلسفة اليونانية، وحضور هذه الفلسفات في تأويلاته وأعماله مثل: شرح سفر التكوين، أسفار موسى الخمسة، شريعة موسى، حياه التأمل، ضد فلاكيوس، التساؤلات، وغيرها من الأعمال[١]. وإذا كانت الفلسفة اليونانية حاضرة في تأويلات فيلون النظرية للنص التوراتي، فهي في الواقع مثلت أداة ووسيلة للدفاع عن الحقائق الدينية اليهودية وتبريرها، وبالرغم من ذلك رفض فيلون من الفلسفة اليونانية ما يتعارض مع النص الديني التوراتي[٢]. وفي تأويلات فيلون نجد حضورًا للرموز الأخلاقية، والتي لا تُخفى أهميتها على المستوى الديني أو الفلسفي أو على مستوى الحياة اليومية للمجتمعات الإنسانية، باعتبار أنها «تمثلات لمجموعة من القيم والمعايير الأخلاقية والمبادئ التي تحدد ما الخير أو الشر، أو ما الفضيلة أو الرذيلة، وتشير إلى بعض الأشياء أو الأحداث بأنها انتهاك للمعايير المقبولة اجتماعيًا»[٣]، من هنا كانت هذه الدراسة للإجابة على تساؤل أساسي هو: ما الرموز الأخلاقية الماثلة في تأويلات فيلون السكندري؟ وللإجابة على هذا التساؤل، تبنت الدراسة منهج العرض والتحليل.

منهج فيلون السكندري في التأويل

اعتمد فيلون على منهج التأويل الرمزي في تفسير النص التوراتي، والذي يتمثل في صرف المعنى السطحي للنص إلى معنى كامن الخفي محتمل[٤] داخل طبقات النص، والذي يمكن الوصول إليه بالنحت في طبقات النص، حيث كان فيلون يعمل على «إخراج دلالة النص من الدلالة الحقيقية التي تمثل ظاهر النص إلى الدلالة الرمزية التي تمثل باطن النص»[٥] وهذا المنهج استخدمه فيلون في تأويلاته للنص التوراتي، بقصد التوفيق بين الفلسفة والدين، جعل الشريعة اليهودية شريعة عالمية صالحة لكل زمان ومكان، وللتخلص من التأويلات الحرفية الظاهرية الأسطورية للنص التوراتي في سفر التكوين حيث قال: «إن العنصر الأسطوري فيما يختص بالحية هو الذي نتخلص منه بالتأويل الرمزي»[٦].

(1) Carrier, 2014, p. 364.

(2) Howell, Carl Sigiegfried, & Jacob Lauterbach.

(3) britannica.com/morl code, n.d.

(٤) الجرجاني، صفحة ٣٣.

(٥) صليبا، ١٩٨٤، صفحة ٢٣٤.

(٦) بريهييه، ١٩٥٤، صفحة ٩٦.

وهذا التأويل الفيلوني يتأسس على عدة مبادئ منها:

أولًا: أن الشريعة والفلسفة هما المصدران الأساسيان في عملية التأويل فمنبع الفلسفة وحقائق الكتاب المقدس واحد وهو الله وكلاهما آى الشريعة الموسوية والفلسفة يقودان إلى معرفة الله، حيث طريق المعرفة الروحية لله يكون عبر بوابة الفلسفة.

ثانيًا: ضرورة ألا يكون التأويل الرمزي سببًا للوصول إلى معنى يهدم أحد أركان الدين، وأن يحافظ على الشعائر والتقاليد الدينية للشريعة الموسوية[١].

ثالثًا: الرمز الديني يخاطب العامة والخاصة بلغه رمزية مجازية وبالأمثال لتقريب الحقائق إلى أذهان الناس، فالعامة يفهمون من النص ظاهرة، أما الخاصة يرون في النص علامات ودلالات فيعملون على تأويلها للوصول إلى الحقائق الكامنة وراء الألفاظ والعبارات[٢].

وباستقراء تأويلات فيلون السكندري سنرى انه اعتمد على قواعد وآليات معينه في تأويلاته الرمزية للنص التوراتي منها:

أولًا: تقسيمة للتأويل إلى ثلاث مستويات: التأويل الحرفي البسيط، والتأويل الحرفي ذي الغرض، والتأويل الرمزي، ويمثل التأويل الرمزي أساس التأويل عند فيلون وهو كائن حي له جسم وروح، فتأويل المعنى الحرفي السطحي يشبه الجسم ويمثله الأوامر والنواهي الحرفية، بينما المعنى الكامن والخفي في النص هو الروح، ومن ثم رؤية الأمور الخفية من خلال الأشياء المرئية[٣]، فكأن عملية التأويل الرمزي تمثل قفزة أو وثبه تبدأ من المعنى السطحي للنص إلى الغوص في طبقات النص المتعددة للوصول إلى المعنى الباطني العميق المراد، بهدف الارتقاء بمعنى النص المادي إلى معنى يسمو ويتعالى على المعنى السطحي للنص.

ثانيًا: التدليل بالنص الحرفي ثم تجاوزه إلى التأويل الرمزي للرد على التأويلات الأسطورية للتوراة لدى بعض السابقين عليه، ومثال ذلك تعمدهم الربط والتوحيد بين تضحية النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بابنه اسحق والأسطورة الإغريقية الخاصة بالتضحية بالأطفال، فأعتبر فيلون أن هذه التأويلات تمثل تأويل حرفي ساذج يجب تجاوزه إلى التأويل الرمزي[٤].

---

(١) النشار، ١٩٩٥، صفحة ٥٨.

(٢) بريهييه، ١٩٥٤، صفحة ٢.

(٣) بريهييه، ١٩٥٤، صفحة ٨٤، ٩٨.

(٤) بريهييه، ١٩٥٤، الصفحات ٩٦-٩٧.

ثالثًا: الاعتماد على ثلاثة مصادر أساسية ساهمت في بلورة منهجه الرمزي في تأويل النصوص التوراتية وهي: الإلهام، والبحث الذاتي الاعتقادي والمأثور الذي يمثل التأويلات الرمزية السابقة عن فيلون، والذي أعاد استعمالها بنفس الدلالة والرمز كمرجعية لمنهجه التأويلي وبخاصة عند اليهودي أرستوبول[١].

الرموز الأخلاقية في تأويلات فيلون

إن الموضوع الجوهري في تأويلات فيلون، هو اكتشاف الرموز الأخلاقية والقصة الداخلية للروح، وتحويل أشخاص وأحداث التوراة التي لا يمكن تفسيرها إذا أخذت على معنى النص السطحي إلا بوصفهم انعكاسًا لحالات النفس الداخلية، فسفر التكوين يعتبر رمزا لتقلب وتبدل النفس الإنسانية من الحالة اللا أخلاقية إلى الحالة الأخلاقية أي حالات عدم اكتراثها بالأخلاق ونزوعها نحو الرذيلة ثم وصولها تدريجيا نحو الفضيلة والكمالات الإنسانية، فقصة الخلق تحكي عن كل مرحلة وحالة من هذه المراحل والحالات، وطبقًا لفيلون كل مرحلة ممثلة بشخصية من شخصيات التوراة ترمز إلى حالة أخلاقية من حالات ومراحل النفس الإنسانية، فأول (آدم) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالنفس أو العقل وهو لا إلى الفضيلة ولا إلى الرذيلة و(حواء) رمزًا للحس المادي واللذة و(الحية) كرمز للغواية، و(قابيل) كرمز للعُجب، و(هابيل) كرمز للخير، و(أنوش) رمز للأمل والرجاء، و(إدريس) رمز للندم، و(نوح) رمزًا للعدالة والتطهر[٢] والنبي (إبراهيم) رمزًا للمعرفة و(يعقوب) رمزًا للمجاهدة والزهد الصوفي، و(إسحق) رمز للحكمة الفطرية الطبيعية وطريق الأنبياء الذي يحبه الله ويمنحه لمن يشاء من البشر[٣]، و(النبي موسى) مصدر كل الحكمة، أن فيلون السكندري يبحث في سفر التكوين عن القصة الكامنة وراء النص الظاهر. حواء التي تمثل الحس الغير عقلاني، أغوتها الحية، التي ترمز إلى اللذة للأكل من الشجرة، وجرت آدم، العنصر العقلاني، إلى الهلاك بنزوله إلى الأرض، وتلد النفس قابيل المعجب بذاته، فيقتل هابيل الذي يمثل الخير والمحب لله[٤] ليصور لنا القصة على غرار التراجيديا اليونانية في الصراع القائم بين العقل والحس والغواية والشر

(١) بريهييه، ١٩٥٤، صفحة ٧٣، ٧٦.

(٢) بريهييه، ١٩٥٤، صفحة، ٦٩، ٧٠، ٧٧.

(٣) برهيية، ١٩٨٨، صفحة ٢٥٢.

(4) T.Runia, 1990, pp. 1-18.

والخير، ورمزية المعرفة والمجاهدة الصوفية والفضيلة الطبيعية تمثل عند فيلون مصادر ثلاثة لمعرفة الله المؤدية للحكمة والكمالات الروحانية الإنسانية.

وفي تأويل فيلون لسفر التكوين الإصحاح الرابع الآية ١-٨ والذي يصف ولادة حواء لقابيل وهابيل، رأى فيلون أن النفس الواحدة قد يكون لها رؤى ومعتقدات متعارضة ومتعادية وتَمثلها في قابيل وهابيل، فالأول يمثل الذاتية والأنانية ويعتبر العقل البشرى علة الواقع والخير، والثاني يمثل القناعة والمحبة لله ويؤمن أن الله علة الواقع والخير، فقابيل وهابيل نموذجان للصراع بين الرؤى والمعتقدات فبينما يمثل هابيل رمزًا للإيمان الديني الشرعي هو وذريته، يمثل قابيل القاتل رمزًا للإيمان اللا ديني ولا شرعي هو وذريته، وقد استحق قابيل هذه الحالة بانقطاعه عن التقوى وحب الذات وابتغائه زوجة لم تكن له، وباعتقاده أن العقل هو مقياس كل الأشياء[1]. فهابيل هنا هو رمز للفضيلة بينما قابيل يمثل رمزًا للرذيلة بكل أبعادها الغير أخلاقية.

وحول ثنائية الروح/ الجسد، رأى فيلون أن الروح قبل أن تنزل إلى الأرض وترتدي قميص الجسد كانت تتمتع بالكمال الأخلاقي لخلوها من المحسوسات، ولكن عند نزولها إلى الأرض وانحصارها في قميص الجسد المادي وبمرور الزمن، فقدت الروح نقاوتها، وهبطت كمالاتها الأخلاقية، وبالرغم من ذلك كانت الروح دائمًا في حالة شوق وتعلق بشيء أعلى، فالجسد عند فيلون خطر على الروح لأنه يجرها إلى كل المتعلقات المادية وروابط الإحساس، والتي تقودها إلى الأغراء والرغبة في الاستمتاع الشهواني بكل ما هو حسى، وبالرغم من أنه يمثل ضرورة نفسية، لكنها شر من وجهه النظر الأخلاقية، ومن ثم يدمر الجسد الروح، فالجسد عند فيلون يعد رمزًا للأهواء والرغبات التي تؤدى إلى شر عظيم.

ورأى فيلون أن الإنسان يمر في تطوره الأخلاقي بعدة مراحل، تبدأ من حالة الكمون، وهى حالة من الحياد الأخلاقي أطلق عليها فيلون مصطلح «النوس العاري» أو «وسطى» إشارة إلى حالة الإنسان التي تكون لا إلى الفضيلة ولا إلى الخطيئة، ويسعى الإنسان في موقفة الوسطى هذا إلى التطلع إلى الفضيلة، فيقدم له الله الحكمة والفضيلة الأرضية كصورة للحكمة السماوية، لكن الإنسان سرعان ما يترك حالة الحيادية هذه بمجرد أن يلتقي بالمرأة ويرتمي

(1) Runia, 2010, pp. 113-129.

في أحضان الحياة الحسية حيث الشهوات والرغبات، والتي تكون موقظة للروح في البداية بفعل المثيرات والملذات الحسية، ولكن سرعان ما تضح حماسها ودوافعها غير العقلانية، و يعيش الإنسان حياة مضطربة و يدوم الإحساس بألم عظيم ناتج عن الفراغ الداخلي المستمر لرغبة وشهوة لا تشبع أبدًا، وفي نهاية المطاف تؤدى الرغبة والشهوة إلى فساد الروح، وموت كل إحساس بالواجب، فذلك هو الموت الأخلاقي الناتج عن الجهل الذي يضع الأشياء الحسية فوق الروحانيات.

وفى تأويله أيضًا لسفر التكوين - الإصحاح الثاني - الآية ١٠-١٤ يؤول الأنهار الأربعة التي تخرج من «عدن» تأويلًا رمزيًا، حيث الأنهار الأربعة ترمز إلى الفضائل الأربعة: نهر «فيشون» رمز التعقل، و«جيجون» رمز الرزانة وضبط النفس، و«دجلة» رمز الثبات والصمود، و«الفرات» رمز العدل، ليضيف إلى الأمكنة رمزًا أخلاقيًا لقدسيتها.

وفي تأويلات فيلون نرصد تأويلات لبعض الأعداد بوصفها رموزًا أخلاقية تمثل فضيلة، مستلهمًا في ذلك فلسفة فيثاغورث فيؤول الرقم (١) بوصفه رقم الله شمس الشموس عله العلل والخير الأعظم (النشار، ١٩٩٥، صفحة ٦٢) والأساس لجميع الأرقام، الرقم (٢) هو رقم الانقسام، والذي تم إنشاؤه من الموت، الرقم (٣) رمز الجسد، الرقم (٤) رمز الشر، الرقم (٥) رمز الحواس الخمسة، الرقم (٩) هو عدد الفتنة، والعدد (١٠) هو رمز الكمال[١].

و يؤول عبور البحر الأحمر على أنه رمزًا لخروج النفس من الحياة الحسية، والفصح رمز لترك النفس للجسم وشهواته، وشجرة الحياة تمثل أعلى الفضائل أي التقوى والتي بها يصير العقل خالدًا واقتران النبي إبراهيم بسارة رمز الاتحاد بين الرجل الصالح والفضيلة[٢].

و يؤول فيلون الأشياء المتعلقة بالنص التوراتي تأويلًا يجعلها رموزًا أخلاقية للحالة الداخلية للنفس، فيؤول: (التابوت) بوصفة رمزًا لفضائل الروح غير القابلة للفساد وأعمالها المرئية، و(آنية الشراب) الموضوعة على المنضدة رمزًا للروح الكاملة التي تفتح ذاتها لله، و(زنبق الشمعدان) رمزًا للفصل بين الأشياء البشرية والإلهية، و(علو التابوت) كرمز لعظمة الروح التي تضحى وتقدم قربانًا، و(زيت المصباح) بوصفة رمزًا للحكمة[٣].

(1) Howell, Carl Sigiegfried, & Jacob Lauterbach.

(٢) النشار، ١٩٩٥، الصفحات ٥٩-٦٠.

(٣) بريهييه، ١٩٥٤، صفحة ٩٠.

خاتمة

إذا افترضنا صحة النقل والترجمة عن فيلون يمكن القول أن الرمز الأخلاقي في تأويلات فيلون يمثل استعارة للفلسفة اليونانية، وكان واضحًا تأثره في تأويلاته بها خاصة بأفلاطون في حديثة عن الروح والجسد فنظرية المُثل حاضرة وبقوة في هذا التأويل، وبفيثاغورث في تأويلة للأعداد، وبالرواقية في استعارته لرموزها من قبيل مجاهدة النفس والقناعة والزهد، فلا يجوز إطلاقًا تحميل النص التوراتي قبليات خاصة و إسقاطها عليه، من قبيل الأفكار الفلسفية والشخصية، وفي هذه التأويلات لا يوجد تماثل بين المرموز والمرموز إليه، فما العلاقة بين آدم والعقل؟ وبين حواء والإدراك الحسي؟ وبين نهر الفرات والعدل؟ لا يوجد سند في النص التوراتي أو واقع تاريخي يقول بذلك! عمومًا الرمز الأخلاقي في تأويلاته قد ارتكز على بعض الفضائل والرذائل الأساسية، **فمن الفضائل**: الحكمة، العدالة، الخير، مجاهدة النفس، الزهد، القناعة، الأيمان، الثبات والصمود، ضبط النفس، التقوى، الكمال، التضحية، **ومن الرذائل**: الملذات الحسية، الغواية، العُجب، الشر، الأنانية وحب الذات، الشهوات، الأهواء، الفتنه، القتل، وتبدو أهمية هذه الرموز كونها تمثل البوصلة التي تحدد للفرد والمجتمع السلوكيات المرغوب فيها والسلوكيات غير المرغوب فيها، وروشتة لعلاج بعض الأمراض المجتمعية التي يكون سببها أخلاقي لا مادي.

المراجع

١. برهييـة, ا. (١٩٨٨). **تاريـخ الفلسـفة ج٢.** (ج. طرابيـشي, Trans.) بـيروت: دار الطليعـة للطباعة والنشر.

٢. بريهييـه، ا. (١٩٥٤). **الآراء الدينيـة والفلسـفية لفيلـون السـكندري.** (م. ي. مـوسى & عبـد الحليم النجـار، Trans). القاهرة: وزارة المعـارف العمومية - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي.

٣. الجرجاني، ع. ب. (n.d.). **التعريفات.** القاهرة: المطبعة الخيرية.

٤. زيـدان, ي. (٢٠١٠, أكتوبـر ١٦). المزيج السـكندري البديع - اليهودية المسـالمة. **جريدة المصري اليوم.**

٥. صليبا، ج. (١٩٨٤). **المعجم الفلسيى.** بيروت: دار الكتاب اللبناني.

٦. النشـار، م. (١٩٩٥). **مدرسة الإسكندرية الفلسـفية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية.** القاهرة: دار المعارف.

7. Carrier, R. (2014). on the historicity of jesus sheffield. phonix press.

8. Howell, C., Carl Sigiegfried, & Jacob Lauterbach. (n.d.). Philo Judaeus. Retrieved from www.jewish encyclopedia.com/articles/12116/philo-judaeus.

9. Runia, D. T. (2010). Dogma and Doxa in the allegorical writing of philo of Alexandria, Études platoniciennes. pp. 113-129. Retrieved from https://journals.openedition.org/etudesplatoniciennes/629britannica.com/morl code. (n.d.).

10. T.Runia, D. (1990). Philo Alexandrian and Jew,Idem,Exegesis and Philosophy: Studies on Philo of Alexandria. pp. 1-18.